

## سميح القاسم (1939-2014) شاعر الغضب الثوري وقيثارة فلسطين

# «سأتكلم متى أشاء وفي أي وقت وبأعلى صوت... لن يقوى أحد على إسكاتي»



سميح القاسم، أحد أشهر الشعراء العرب والفلسطينيين المعاصرين الذين ارتبط اسمهم بشعر الثورة والمقاومة من داخل أراضي العام 48، مؤسس صحيفة «كل العرب» ورئيس تحريرها الغفري، عضو سابق في الحزب الشيوعي. ولد لعائلة عربية فلسطينية في قرية الرامة لفلسطين عام 1939، وتعلم في مدارس الرامة والناصرة. وعلم في إحدى المدارس، ثم انصرف بعدها إلى نشاطه السياسي في الحزب الشيوعي قبل أن يترك الحزب ليتفرغ لعمله الأدبي.

كان والده ضابطاً برتبة رئيس (كابتن) في قوة إخراسي منذ الطفولة سار بهم ساتكلم متى أشاء مع عائلاتهم. حين كانت العائلة في طريق العودة إلى فلسطين في القطار، في عمرة الحرب العالمية الثانية ونظام التعقيم، بكى الطفل سميح فذعر الركاب وخافوا أن يتهدي إليهم الطائرات الألمانية! وبلغ بهم الذعر درجة التهديد بقتل الطفل إلى أن اضطر الوالد إلى إظهار سلاحه في وجوههم لردعهم، وحين رويت الحكاية لسميح في ما بعد تركت أثراً عميقاً في نفسه: «حسناً لقد حاولوا إخراسي منذ الطفولة سار بهم ساتكلم متى أشاء وفي أي وقت وبأعلى صوت، لن يقوى أحد على إسكاتي».

رؤى بعض شيوخ العائلة أنّ جذمهم الأول خير محمد الحسين كان فارساً من أمسيات القرامطة قدم من شبه الجزيرة العربية لمقاتلة الروم واستقرّ به المطاف على سفح جبل حيدر في فلسطين على مشارف نزل كان مستوطنة للروم. وما زال الموقع الذي نزل فيه معروفاً إلى اليوم باسم «حلة خبز» على سفح جبل حيدر الجنوبي. والى حسين معروفون بعيلهم الشديد إلى الثقافة وفي مقدمتهم المرحوم المحامي علي حسين الأشعدي، رجل القانون والعربي الذي ألف وترجم وأعد القواميس المدرسية وكتب الشعر وتوزعت جهوده بين فلسطين وسورية ولبنان وأقام معهد الشرق لتعليم اللغات الأجنبية في دمشق.

سجن سميح القاسم أكثر من مرة كما وضع رهن الإقامة الجبرية والاعتقال المنزلي وطرد من عمله عدّة مرّات بسبب نشاطه الشعري والسياسي وواجه أكثر من تهديد بالقتل، في الوطن وخارجه. اشتغل مُعلماً وعلماً في خليج حيفا وصحافياً. شاعر مُكثّر يتناول في شعره الكفاح والمعاناة الفلسطينية، وما أن بلغ الثلاثين حتى كان نشر ست مجموعات شعرية حازت شهرة واسعة في العالم العربي.

كتب سميح القاسم أيضاً عدداً من الروايات ومن اهتماماته إنشاء مسرح فلسطيني يحمل رسالة فنية وثقافية عالية، كما يحمل في الوقت نفسه رسالة سياسية بارزة على التأثير في الرأي العام العالمي في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية. ساهم في تحرير «الغد» و«الاتحاد» ثم رُشّن تحرير جريدة «هذا العالم» عام 1966. ثم عاد للعمل محرراً أنيباً في «الاتحاد» وأمين عام لتحرير «الجديد» ثم رئيس تحريرها، وأسّس نشرات

## بطاقات معايدة إلى الجهات الست

أُسوةٌ بالملائكة الخائفتين على غيمة خائفه  
في مدى العاصفة  
أُسوةٌ بالأباطرة الغابرين  
والقيصرة الغاربيين  
في صعدا نذبح سبعين شخصاً من العزل الأمنين  
وبوقت يسير على ساعتى الواقعة  
أُسوةٌ بالصاعليك واليهوليس  
بين انقاص مناهتات الكاذبة  
أُسوةٌ بالمسكين في ثورا بورا،  
وإخوتهم، تحت ما ظل من لعنة التوامين،  
ونار جهنمها اللاهية  
أُسوةٌ بالجياع ونار الإطارات في بونيسوا إيريس،  
وبالشربة الغاصبة  
أُسوةٌ بالرجال السكارى الوحيدين تحت المصابيح،  
في لندن السائبة  
أُسوةٌ بالمغاربة الهائمين على أوجه الدل والموت،  
في ليل مليئة الخائبة  
أُسوةٌ بالمصلين في ياسهم والمقيمين،  
أسرى بيوت الصفيح العتيق  
أُسوةٌ بالصديق الذي باعهُ مُخبرٌ،  
كان أمس الصديق الصديق  
أُسوةٌ بالرهائن في قبضة الخاطفين  
أُسوةٌ برحاف الطريق  
أُسوةٌ بالجنود الصغار على حرب أسيادهم،  
وعلى حفنة من طحين  
أُسوةٌ بالمساجين ظناً،  
على ذمة البحث عن تهمة لا تَقَعُ  
أُسوةٌ بالقراصنة الميئين  
بضحايا الأعاصير والسفن الغارقة  
بالرعاة الذين أتى القحط عاماً  
فعاماً  
على جبل إيمانهم  
وعلى كل قطعانهم  
أُسوةٌ بالشباب المهاجر سراً،  
إلى لقمة ممكنة  
خارج الجوع في وطن الفاقة  
المرنمة  
أُسوةٌ بالفدائي أَوْعَعَهُ خائنٌ في كمين  
واللغات التي أوشكت أن تبيد

في كهوف النظام الجديد  
أُسوةٌ بضحايا البطالة  
يبحثون عن القوت في حاويات الزبالة  
أُسوةٌ بالطيور التي هاجرت ثم عادت إلى حقلها الموسمي  
في الشمال القصي  
لم تجد أي حقل.. ولا شيء غير المطار  
والفرشاش ظل الفرشاش في المشهد المعدني  
وصراط الهمى المستقيم  
أُسوةٌ باليتامى الصغار  
بالمسننين في عزلة الزمن المستعار  
بين نار وماء.. وماء ونار  
أُسوةٌ بالجرار التي انكسرت،  
قبل أن تبلغ الماء،  
في واحة تشتهبها القفار  
أُسوةٌ بالمياه التي أهرقت في الرمال،  
ولم تستطعها الجراز  
أُسوةٌ بالعبيد الذين اعتنقهم سيول الدماء  
ثم عادوا إلى ربة السادة المترفين  
في سبيل الدماء  
وبقايا بقايا غذاء  
أُسوةٌ بالقوانين، تقهرها ظاهره  
بالبحار التي تدعىها سقيفة  
بالجهات التي اخضرتها مدينة  
بالزمن المقيم على اللحظة العابرة  
أُسوةٌ برجال الفضاء وحرب النجوم للعيبة  
أُسوةٌ بضحايا الحوادث في الطرق المتعبه  
وضحايا الكلام  
وضحايا السكوت عن القائلين  
بحكم الظلام  
وبفوضى النظام  
أُسوةٌ بي أنا  
أردتي كفتي  
صارخاً: آخ يا جبلي المُحنى  
آخ يا وطني  
آخ يا وطني  
آخ يا وطني!

سميح القاسم

(منشورات أبو رحمون، عكا، 1980).  
24. الصورة الأخيرة في الألبوم -حكاية-  
(منشورات دار الكاتب، عكا، 1980).  
25. ديوان الحماسة / ج 3 -قصائد-  
(منشورات الأسوار، عكا، 1981).  
26. الجانب الممتع من الثقافة، الجانب المضي من القلب - قصائد- (دار الفارابي، بيروت، 1981).  
27. كتاب الأسود -المؤتمر المحظور- (توثيق، مع د. إميل توما، (مطبعة الاتحاد، حيفا، 1981).  
28. جهات الروح -قصائد- (منشورات عربيسك، حيفا، 1983).  
29. قرايين -قصائد- (مركز لندن للطباعة والنشر، لندن، 1983).  
30. كولاغ -تكوينات- (منشورات عربيسك، مطبعة سلامة، حيفا، 1983).  
31. الصحراء -سريية- (منشورات الأسوار، عكا، 1984).  
32. برسونا نون غراتا؛ شخص غير مرغوب فيه -قصائد- (دار العمام، حيفا، 1986).  
33. لاستان أحدا -قصائد- (رياض الرئيس للكتاب والنشر، لندن، 1988).  
34. سبحة للسجلات -قصائد- (دار الأسوار، عكا، 1989).  
35. الرسائل -نثر- (مع محمود درويش)، (منشورات عربيسك، حيفا، 1989).  
36. مطالع من أتولوجيا الشعر الفلسطيني في ألف عام -بحث وتوثيق- (منشورات عربيسك، حيفا، 1990).  
37. رمان الوردية، دخان الأغنية -نثر- (منشورات كل شيء، شفاعمو، 1990).  
38. أخذة الأميرة بيوس -قصائد- (دار النورس، القدس، 1990).  
39. الأعمال الناجزة (7 مجلدات) (دار الهدى، القدس، 1991).  
40. الاحلون -توثيق- (دار المشرق، شفاعمو، 1991).  
41. الذاكرة الزرقاء (قصائد مترجمة من العربية- مع تزيه خير)، (منشورات مفراس، 1991).  
42. الأعمال الناجزة (7 مجلدات) (دار الجبل، بيروت، 1992).  
43. الأعمال الناجزة (6 مجلدات) (دار سعاد الصباح، القاهرة، 1993).  
44. الكتب السبعة -قصائد- (دار الجديد، بيروت، 1994).  
45. أرض مراوغة. حريز كاسد. لا بأس!  
46. (منشورات ابداع، الناصرة، 1995).  
47. ياسمين (قصائد لروني سويد- مترجمة عن العبرية، مع تزيه خير)، (مطبعة الكرمة، حيفا، 1995).  
47. خذلتني الصحارى -سريية- (منشورات إضاءات، الناصرة، 1998).

## قراءة في «قصيدة الانتفاضة» للقاسم

في المشهد الأول، يقارن بين اليهود وشعب فلسطين، بين التاريخ والحاضر. إذ يتحدث عن قلبه اليهودي الذي استقر في ما بعد في فلسطين، بينما تشرذ شعبي في الأرض وصار هو الغريب. يقول في قصيدة «غرباء»: سنوات التي في سبنا كانت أربعين ثم عاد الآخرون ورحلنا.. يوم عاد الآخرون فإلى أين؟.. وحتام سنبقى تائهين وسينقى غرباء؟ وفي قصيدة «بوابة الدموع» يقدم المشهد الثاني الذي تتحرك مفرداته داخل فلسطين على نحو رئيسي: أحبابنا.. خلف الحدود ينتظرون حبة من قمحهم وبظفر من زيتونهم، ويسألون وكيف حال بيتنا التريك وكيف وبلدنا الأرض.. هل يعرفها إذا نعود؟ يا ويلتنا.. أم شبع لاجء شريد يا ويلتنا.. من عيشة العبيد فهل نعود؟ هل نعود؟ في المشهدين ينتهي الى تساؤلات حائرة، خالية من الجواب. تساؤلات حول المكان والزمان والمصير، وهي أقتسى مفردات الألفاظ والغربة، وأشدّها الما، وأكثرها ضغطاً على الأصابع. عندما ننحني إلى ما رسمه الشاعر لا نملك إلا أن نسلم -للهولته الأولى على الأقل- بأن الماساة أخذت كل قلبه ومشاعره، فسقط حائراً أو يائساً. لم يتكشف وجهة الغربة ومحطتها القادمة، ولم يقدر مدتها الزمنية، ولا يستطيع أن يتكهن بالمصير. فوق إزاء مجاهيل مظلعة في الإمكان أن تقر بصورة نهائية سقوط القاسم ضحية للنياس، معتمدين على الوفيقتين اللتين كتيهما بنفسه. لكن سعة المشروع الثوري الذي بلوره يتبع ودقة خلال فترة زمنية طويلة من الإنتاج الشعري، تجعلنا نترتب ونبحث في الرؤية الحقيقية التي اعتمدها في رسم اشكاله اليائسة. لا لا نتردد في القول إنه كان ضرورياً أن يلجا الشاعر إلى هذا الأسلوب، أن يسلم أضواءه على جوانب الماساة الفلسطينية، أن يظهرها للعيان بكل ما تعنيه قواه. فما حدث لفلسطين ليس أمراً عادياً، ولأن فلسطين تحتاج إلى تعامل حسي مرفه مع قضيتها، وإلى عين جوّالة في مناطق الأكم، وأن سماعة لكل آمة حزن، فهي تحتاج إلى هذا وذاك لتبقى حية في الوجدان الإنساني، قضية غير قابلة للتعميم، خاصة أنها مستودعة عربياً ودولياً ومحطوة بذكر كبير من محاولات الاستيعاب والإنهاء بالطرائق المستعجبة رسمياً، المحرمة شعبياً. لا بد لأي شاعر يكتب عن فلسطين من أن يحترم هذا القانون، أن يحترم الأكم الفلسطيني، وليثبت شهادته بأن فلسطين في

كتب سليم الحسني: في «قصيدة الانتفاضة» للشاعر سميح القاسم نقرأ خطاباً حماسياً ساخناً، يحاول الشاعر أن يستوعب فيه حدث الانتفاضة، من خلال إخضاعه حالة التصادم بين الطرفين. وقد توفر القاسم في خطابه على حس ثوري متحد، حرص على أن يكون بدرجة الانتفاضة نفسها، من حيث قوة الموقف وسرعة الحركة وسعة الآثار. عندما نقرأ شعر القاسم في مراحل التاريخية المختلفة، ووصولاً إلى «قصيدة الانتفاضة» نكتشف أنه كان يسعى إلى تقديم أطرحة شعرية عن الثورة. ولم يؤسس هذه الأثرحة بشكل منفرد وبنظرة خاصة منطلقة من رغبة في الخروج على واقعه المرير، أو على أمنية داخلية متعلقة بحالة النصر، إنما استند في ذلك على رؤية قومية تتميز بها وتحرك من قاعدتها وعلى صونها التعبير عن أطروحته الثورية التي أخذت الكثير من تفكيره واستقراته، وهذا ما يتضح من خلال قيات المضامين الشعرية التي كتبها في فترات زمنية مختلفة، إذ نجد بقاء الفكرة والموقف على ما هما عليه، من دون تغير في الأسس، رغم تبدل الصورة التي تستوعب كلا منهما أو كليهما. ما يشير إلى عمق التصور الذي كونه الشاعر حول مسيرته، وإلى إيمانه بخط التحرك الذي سلكه منذ البداية. في بعض الفترات كانت ثمة مواقف تبدو مظلمة، حيث يسقط إحساس الانتصار على الشاعر بدرجة ملحوظة، عندما يتحدث عن واقعه، ويتنقل عبر نقاطه على مشاهد الماساة والحزن والألم، لكن اعترافاته بالهزيمة لا تشكل انهاراً ذاتياً يجعله يسقط في حالة اليأس التام، فتتلاشى طموحاته وأحلامه وتموت في داخله أطروحته راسمة طريق الغد. إن ذلك لم يحدث بهذه الصورة المخيفة، وما ظهر من إنتاج الشاعر في هذا الخصوص، إنما مشاريع مشتركة بين جميع أبناء البلاد العربية والإسلامية، تولدت عبر حقب تاريخية متلاحقة، نتيجة مواقف الليتيني التي صنعها الحكام. ولم يعد في إمكان أي إنسان على هذه الخريطة المترامية، إلا أن يوجع بهذه المشاعر التي تزخر في قلبه ويعجز عن حبسها. لقد كان القاسم يصف الواقع العربي، يتحدث عن الثردى الذي أحاط به كإسنان ينحني إلى فلسطين وإلى غير فلسطين، وكان في حديثه عن الألم يحاول أن يسحب بطريقة سرية سمارة الأمان ليفرج العيون. في هذا الاتجاه الذي يتناول فيه مظاهر الهزيمة والضعف في الواقع العربي، يقدم مظهرين متقابلين لحالة القضية الفلسطينية. كأنه يريد أن يعان مظلومية فلسطين على أكبر مساحة مرتبة، ليثير ما يستطيع إثارته من مشاعر التعاطف، ومن ثم التفاعل معها، حتى لا تضعف في السنيان، ولتظل شاخصة أمام العين وحيّة في الضمائر.

48. كلمة الفقيه في مهرجان تابينه -سريية- (منشورات الأسوار، عكا، 2000).  
49. ساخرج من صوتي ذات يوم -قصائد- (مؤسسة الأسوار، عكا، 2000).  
50. الممثل وقصائد أخرى (منشورات الأسوار، عكا، 2000).  
51. حسرة الزلزال -نثر- (منشورات الأسوار، عكا، 2000).  
52. كتاب الإبراك -نثر- (منشورات الأسوار، عكا، 2000).  
53. ملك أتلانتس -سرييات- (دار ثقافات، العنامة-البحرين، 2003).  
54. عجائب قانا الجديدة -سريية- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2006).  
55. مقدمة أمين محمدرؤى وتراسميداموس -شعر- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2006).  
56. بغداد وقائد أخرى -قصائد- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2008).  
57. بلا بنفج (كلمات في حضرة غياب محمود درويش) - (منشورات الهدى، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2008).  
58. أنا مئتمنأف -سريية- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2009).  
59. مكاملة شخصية جدا (مع محمود درويش) -شعر ونثر- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2009).  
60. كولاغ 2 -شعر- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2009).  
61. لا توقظوا الفتنة! -نثر- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، 2009).  
62. كتاب القدس -شعر- (إصدار بيت الشعر، رام الله، 2009).  
63. حزام الورد الناسف -شعر- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2009).  
64. الجدران (أوبريت) -شعر- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2010).  
65. أولاد في حملة خاص -حكاية شعرية لبيروت بريشت (مترجمة عن العبرية)- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2010).  
66. ملقعة سَم صغيرة، ثلاث مرّات يوماً -حكاية أو تيوبوغرافية- (منشورات إضاءات، مطبعة الحكيم، الناصرة، 2011).  
67. إنها جزء منفضة -سيرة (الجزء قبل الأخير)- (دار راية للنشر، حيفا، 2011).  
68. مناصب القامة أمشي -مخازرات شعرية- (منشورات الأسوار، عكا، 2012).  
69. هواجس لطقوس الأحفاد -سريية- (منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت) ومنشورات كل شيء (حيفا)، 2012).  
70. كولاغ 3 -شعر- (منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت) ومنشورات كل شيء (حيفا)، 2012).

والحياة. في قصيدة «الذي قتل في المنفى كتب لي» يتضح من العنوان أن الموت لم يبه دور العقول، بل يستمر مع الآخرين الذين يعرفهم. ما يعني بقاء عناصر الحياة في داخله، وأن الموت الذي فرضه الأعداء على السجن كان شكلياً، فمن الاستلاب الروحي لشخصية المناضل. في القصيدة يتحدث الشاعر عن قيمة التحدي فيجعلها تمثل قيمة حية غير قابلة للحذف، رغم المحاولات المعادية. تتزايد أساليب التعذيب حتى يموت السجن، لكنه يظل محافظاً على موقف التحدي المتمثل في «جيبه المرفوع» على شكل توثيق ذات يوم يا حياهم..! لكن.. ظل مرفوعاً إلى الغرب.. جيبيني. إن الموقف عنده أهم من الحياة، لأنه سيقبى محرّكاً لها، صانعاً مواقف أخرى في الطريق النضالي. فلقد توقف التعذيب وانتهت ممارسات الأعداء لحظة موت السجن، لكنه يظل محافظاً على موقف التحدي المتمثل في الحياة. يقدم الشاعر في قصيدة «رسالة من المعتقل» فتاعات إضافية لتسدير في الخط نفسه، فإذا كان اعتبر بدءاً أن الموقف النضالي أهم من الحياة، فإنه يعزّز هذا الرؤية السابقة، إذ يعتبر أن الأجواء النضالية هي الوسط الذي تولد فيه الحياة. وبذلك فإن السجن الذي يشكل المحطة الطبيعية للمناضلين يتحول إلى ساحة للولادة، وليس مظلمة اعتادت النظرة العامة أن ترى فيه منطقة الموت والنهاية التعيسة للدالحين إليه. بل إن السجن بحسب تصور الشاعر سيواجه التهديد أمام الانبعاث الثوري الذي يولد في داخله. لكني أومن يا أمام أومن.. أن روعة الحياة تولد في معقلي أومن أن زأري الآخري..! بل يكون خفاش لييل.. مدلجا.. بلا عيون ليد..! أن يزورني النهار وينحني السجنان في أنهار ويرتمي.. ويرتمي معقلي مهما.. لهيبة النهار!! إن اطمئنان الشاعر لحنتمية الانتصار لا يعني تجدد في حدود واقعه وأوضاعه وحالته الأتية. لا يفهم الحتمية على أنها حركة تنطلق بدوافع خفية خارجة عن دائرة الفعل النضالي، إنما ينظر إليها على أنها مترابطة سببياً مع هذا الفعل، فهو سببها وهي نتيجته. لا يعيش حالة اضطراب أو فوضى داخلية، فالرؤية واضحة لعينيه. ونكسي-رغم دهر البين ورغم الريح والمنفى ورغم مرارة التشرد وتترك.. تترك الدربا!!!